

في الحرية والديمقراطية

جميع الحقوق محفوظة  
لمركز الحوار للثقافة (تنوير)

[www.kwtanweer.com](http://www.kwtanweer.com)



الطبعة الأولى  
الكويت 2009

هذه ترجمة لمحاضرة الفيلسوف كارل بوبر وردت في كتاب:

All Life Is Problem Solving  
Karl Popper  
Routledge, London & New York  
First Published, 1999

كارل بوبر

## في الحرية والديمقراطية

ترجمة: عقيل يوسف عيدان

باحث وكاتب كويتي وعضو مركز "الحوار" للثقافة (تنوير)

eyemh@hotmail.com

مراجعة: محمد عبد الجبار الشبوط

مفكر عربي مقيم في الكويت



«إن التخلِّي عن الحرية هو بمثابة  
التخلِّي عن أن تكون إنساناً»

جان جاك روسو

(العقد الاجتماعي)



## تقديم المراجع

---

ثمّة أمر لافت في معالجة كارل بوبر (1902-1994) للحرية، ومن قبل الديمقراطية. ففي محاضرته التي ألقاها في 25 أغسطس عام 1958 ونشرت لأول مرة في عام 1967، يقول: "تكون الدولة حرة من الناحية السياسية إذا كانت مؤسساتها السياسية تمكن مواطنيها من الناحية العملية من تغيير حكومة قائمة دون سفك دماء، متى ما كانت الأغلبية راغبة بذلك".<sup>1</sup>

وفي محاضرة ثانية عن الدولة الديمقراطية، يشرح بوبر الديمقراطية بأنها القدرة على إقالة الحكومة دون إراقة الدماء، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم.<sup>2</sup> ويقول أيضا في محاضرة ألقاها عام 1987 إن المبدأ الأخلاقي للديمقراطية هو "شكل الدولة الذي يسمح بإقالة حكومة من دون إراقة دماء".<sup>3</sup>

التشابه بين المعيارين، حتى لا أقول وحدتهما، يسمو على الشك. فثمة معيار واحد أو معياران متشابهان، للدولة الحرة والدولة الديمقراطية، لدى بوبر، ذلك هو القدرة على إزالة الحكومة بدون إراقة دماء.

فهل يعني هذا أن الدولة الديمقراطية هي الوجه الآخر للدولة الحرة بحيث

- 
1. Karl Popper, All Life is Problem Solving, Routledge, London, 1999, p 89
  2. كارل بوبر، درس القرن العشرين، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 1، 2008، ترجمة الزواوي بغورة ولخضر مذبوح، ص 90.
  3. المصدر السابق، ص 107.

تكون الكلمتان صفتين لدولة واحدة؟ هل أن الديمقراطية والحرية وجهان لعملة واحدة؟

وبطريقة أخرى: ما هي العلاقة بين الديمقراطية والحرية؟ هل هي علاقة تماهي؟ هل هي علاقة الشرط بالمشروط، كالعلاقة بين فعل الشرط وجوابه بحيث لا يتحقق الثاني دون وجود الأول؟ وان كان ثمة علاقة، فهل هي علاقة مفهومية، أم إجرائية، أم ربما كلاهما؟

الإجابة عن هذه التساؤلات تتطلب إلقاء ضوء جديد على الديمقراطية، لكي يكون هذا الضوء كاشفاً للعلاقة بينها وبين الديمقراطية.

نذكر هنا أن الباحث عادل ضاهر، على سبيل المثال، لا يتردد في اعتبار الحرية من شروط الديمقراطية. ففي دراسته المنشورة في أغسطس من عام 2006 يطرح خمسة شروط للديمقراطية، يقول أحدها، وهو الثالث منها: "ينبغي إعطاء كل مواطن الحق في ممارسة الحرية على أوسع نطاق يسمح به إعطاء حرية مماثلة للجميع".

من ناحيتي، لست من الذين يتطلبون أشياء بوصفها "شروطاً" للديمقراطية، تكون العلاقة بينهما كعلاقة العلة بالمعلول. إنما يكفي أن نتطلب جملة عوامل أولية، يكون وجودها عاملاً مساعداً على قيام الديمقراطية، حيث تتكفل الديمقراطية، بوصفها صيرورة مجتمعية ثقافية وسياسية، بإنضاج شروطها وعوامل تحققها بما في ذلك تصحيح أخطائها التي تبرز أثناء التطبيق.

لكن إذا أصر الباحث على شرط ما، فلن أتردد باعتبار الحرية شرطاً جوهرياً وضرورياً للديمقراطية. جوهري بمعنى أنه لا يمكن للديمقراطية أن تكتمل كمفهوم دون الحرية، ولا تتحقق وجودياً دون تحقق الحرية. بحيث تكون العلاقة بين طرفي المعادلة علاقة ضرورة. ذلك استناداً إلى فهمي لما هو جوهري في مفهوم الديمقراطية.



أذكر قبل الحديث عن ما هو جوهرى في الديمقراطية، بأن مصطلح الديمقراطية يتصف بسيولة مفهومية هائلة، ناجمة عن التطورات التي طرأت وتطراً على محمولات المصطلح الفكرية والإجرائية منذ طرح لأول مرة في أئينا قبل أكثر من 2500 سنة. وهي سيولة تكشف عن نفسها في أحيان كثيرة في اضطرارنا إلى إضافة صفة أخرى للمصطلح تستبطن محمولا آخر. فبعد أن كان الأثينيون يستخدمون كلمة "الديمقراطية" فقط لتسمية نظامهم السياسي، قام المفكرون من بعدهم بإضافة كلمة "المباشرة" إليها، فصارت تعرف باسم "الديمقراطية المباشرة"، تمييزاً لها عن ديمقراطية أخرى حملت اسم "الديمقراطية التمثيلية". وأطلق آرنست ليبهارت<sup>4</sup> اسم "الديمقراطية التوافقية" على نموذج الديمقراطية، لتمييزه عن "الديمقراطية التعددية"، هذا فضلاً عن مصطلحات ديمقراطية أخرى راجت في القرن الماضي، مثل الديمقراطية الشعبية، والديمقراطية المركزية، وغيرها.

تخفي تعددية المصطلحات والأسماء تعددية من نوع آخر، هي تعددية التعريفات. ويستطيع الباحث أن يُورد قائمة طويلة من تعريفات الديمقراطية مثل:

مونتسكيو (1689-1755): "إذا كانت السلطة ذات السيادة في الجمهورية قبضة الشعب جملة سمي هذا ديمقراطية".<sup>5</sup>

شومبيتر (1883-1950) بأنها ذلك الترتيب المؤسسي الذي يمكن من الوصول

---

4. آرنست ليبهارت في كتابه "الديمقراطية التوافقية"، في أواخر الستينات من القرن الماضي، رغم أنه لم يكن أول من استخدم مصطلح التوافقية consociational، حيث يذكر روبرت دال، في كتابه "الديمقراطية ونقادها"، أن ليبهارت استعار المصطلح من جوهانز الثوسوس (1638-1557) في كتابه الصادر عام 1603. لكن ديفيد ابتر، كما يقول ليبهارت نفسه، هو أول من استخدم المصطلح في العصر الحديث في عام 1961.

5. مونتسكيو، روح الشرائع، (ترجمة عادل زعيتير)، ج1، ص21.

إلى قرارات سياسية تتيح للأفراد القدرة على اتخاذ القرار بواسطة الصراع التنافسي على أصوات الناس.<sup>6</sup>

هليد: "حق الناس الذي لا نزاع فيه في تقرير الإطار العام للقواعد والأحكام والسياسات في بلدهم وان يحكموا على هذا الأساس".<sup>7</sup>

هذا فضلا عن التعريف الكلاسيكي المدرسي الذي يقول إن الديمقراطية هي سيادة الشعب، أو حكم الشعب بالشعب للشعب، (سيادة الشعب).

... وليس انتهاءً بتعريف كارل بوبر، المذكور في بداية هذه الصفحات.

أمام هذه السيوولة من التعريفات يتعين الغوص إلى بنية المفهوم التحتية من أجل اكتشاف ما يسميه عادل ظاهر "النواة السيمانتية الجوهرية للمفهوم أو السمات الضرورية للمفهوم"<sup>8</sup>، وهي، تلك السمات الأبسط للمفهوم ذات الأسبقية المنطقية على كل سماته الأخرى، التي تمثل المكونات الأساسية للمفهوم، وما نشق منه كل سمات المفهوم الأخرى. ومن المفيد أن أذكر هنا أن المفكرين لا يتفقون حتى في هذا المستوى على تحديد النواة المفهومية للديمقراطية. هناك من يرى، على سبيل المثال، ومنهم عادل ظاهر نفسه، أن النواة السيمانتية للديمقراطية هي سيادة الشعب. لكن بوبر يقول في المقابل: "لم تكن الديمقراطية أبدا حكم الشعب، لا يمكنها ولا يجب أن تكون كذلك".<sup>9</sup> فيما يرى صامويل هنتنغتون (1927-2008)

6. Joseph Schumpeter, Two Concepts of democracy, in Political Philosophy, Edited by Anthony Quinton, p.173-174. Also, Schumpeter, Capitalism, Socialism and Democracy. p269

7. أيضا، انظر: بوتومور، علم الاجتماع السياسي، (ترجمة د. وميض نظمي)، ص33. Held, Democracy, in Liberal Democracy into the Twenty-first Century, Ronald Axtmann, p 10

8. عادل ظاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص43.

9. درس القرن العشرين، مصدر سابق، ص86.

أن الانتخابات هي جوهر الديمقراطية.<sup>10</sup> في حين أن الانتخابات لا يمكن أن تحقق الشعب إلا إذا توفرت فيها شروط أخرى، من بينها أن تكون حرة، وعادلة، ونزيهة<sup>11</sup>، وهي شروط تضمن سلامة الاختيار، وصدق تعبيرها عن سيادة الشعب، بينما يمكن إجراء انتخابات سليمة من حيث الشكل، لكنها تؤدي إلى تزوير إرادة الشعب، أو إنتاج حكم دكتاتوري، كما فعلت الانتخابات التي جاءت بهتلر (1889-1945) إلى السلطة.

لكن التأمل في التعريفات الكثيرة للديمقراطية يمكن أن يقودنا إلى نواة مفهومية أخرى، ربما كانت أكثر عمقا وتفردا، تتمثل بكلمة واحدة، هي الاختيار الحر تجسد حرية الإنسان وقدرته الحرة على تحقيق تداول السلطة سلميا. ففي هذه الكلمة يكمن سر الديمقراطية وجوهرها ومضمونها القيمي. الاختيار المتحرر من كل أشكال الخوف والقهر والإكراه، ماعدا سلطة القانون المتبع في المجتمع المعطى. الاختيار الحر هو المعنى الذي تتقوم به الديمقراطية، الذي لا يمكن أن نتصور له بديلا لشرحها. يقول فرانسيس فوكوياما إن البلد الديمقراطي هو الذي يمنح الشعب حق اختيار حكومته بواسطة انتخابات دورية على أساس التعددية الحزبية وبالافتراع السري العام، وعلى أساس المساواة بين جميع أفراد المجتمع.<sup>12</sup> البلد الديمقراطي، بتصوري، هو البلد الذي يتيح لمواطنيه فرصة الاختيار، حق الاختيار الذي يستبطن، في آن معا، أن يكون اختياراً حراً، واختياراً مسؤولاً، والمؤدي إلى تداول السلطة سلميا. والعلاقة مفهومية بين هذه المفردات الثلاث:

---

10. Samuel Huntington, The Future of the Third Wave, The Journal of Democracy, October, 1997, pp3-12.

11. يذكر عبد الفتاح ماضي ثلاثة معايير للانتخابات الديمقراطية، هي: الفاعلية (الاختيار من بين بدائل متعددة)، الحرية، والنزاهة. في كتاب "الانتخابات الديمقراطية وواقع الانتخابات في الأقطار العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، تحرير علي خليفة الكواري.

12. Francis Fukuyama, The End of history and the Last Man, p 43.

الديمقراطية، والاختيار، والحرية. فلا يمكن تصور ديمقراطية بدون اختيار، ولا يمكن تصور اختيار بدون حرية، وعليه لا يمكن تصور ديمقراطية بدون حرية.

تتوقف ممارسة الديمقراطية، بأي من تعاريفها، على وجود مواطن حر قادر على الاختيار. مواطن "سيد على بدنه وعقله"، كما وصفه جون ستيوارت ميل (1806-1873).<sup>13</sup>

سيادة الشعب لا معنى لها بدون مواطنين أحرار تتلبس السيادة فيهم؛ الترتيب المؤسسي لاختيار الحكام لا معنى له بدون وجود مواطنين أحرار يمارسون هذا الاختيار بحرية؛ الانتخابات لا معنى لها بدون وجود مواطنين أحرار يدلون بأصواتهم في صناديق الاختيار بدون خوف أو قيود. وقل نفس الشيء عن استبدال الحكومات بدون إراقة دماء.

إذا، الديمقراطية تتطلب وجود مجتمع أحرار. لا يمكن تصور قيام الديمقراطية في مجتمع عبيد، أو في مجتمع تمت فيه مصادرة الحرية وسلبها وحرمان الناس منها. يقول آلن تورين: "لا وجود للديمقراطية بدون حرية اختيار الحاكمين من قبل المحكومين".<sup>14</sup>

تعني الحرية، أولاً وابتداءً، الحق في الاختيار. هذا الحق معطى أصيل، وليس منحة، فالحالة "الطبيعية" التي وجد فيها الإنسان هي الحرية، حرية الاختيار. هكذا كان الإنسان يوم خلق لأول مرة كإنسان راشد وعاقل سواء قلنا بالتطور، على نظرية داروين (1809-1882)، أم قلنا بالخلق الدفعي من قبل الله، كما تقول الأديان: "إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً".<sup>15</sup>

13. John Stuart Mill, On Liberty, p69.

14. آلن تورين، ما هي الديمقراطية، ص 13.

15. القرآن الكريم، سورة الإنسان، آية 3.

والهداية هنا إراءة الطريق، وليس الإيصال إلى المطلوب؛ فيكون المعنى أريناه طريقين، وعليه أن يختار بينهما. ولا يمكن للإنسان أن يختار أيا من الطريقين ما لم يكن حرا. الحرية تأتي في أصل طبيعة الإنسان، سواء قلنا بالقانون الطبيعي أم قلنا بالقانون الإلهي. أيما كان أصل الإنسان وأيما كان القانون الذي يحكمه، فالحرية هي الطبيعة الأولى له. يولد الناس أحرارا، ثم تنشأ الأغلال والقيود التي تقيد هذه الحرية. والقانون من القيود، لكنه قيد ينظم الحرية، ولا يصادرها. بشرط أن يكون الإنسان الحر هو مصدر شرعية سلطة القانون ودخوله حيز التنفيذ. حتى الشريعة الإلهية لا تدخل مرحلة الإلزام الفعلي قبل أن يقبل الإنسان الحر الالتزام بها. الحرية شرط الأهلية الإنسانية للتعاقد. فحتى يكون هذا المخلوق مؤهلا للتعاقد وجب أن يكون حرا. لا عقد بلا حرية. والديمقراطية فعل تعاقد. إنها عقد بين الناس لاختيار من يحكمهم. وعقد بينهم وبين من اختاروه للحكم. ولا يصح هذا العقد دون أن يكون الناس أحرارا.

والحرية في جوهرها الفلسفي واحدة. ربما يصح أن نقول إنها مجرد نفي سيطرة الغير. ويستطيع القانون والدستور والتشريع أن ينص على حرية الإنسان. وفي هذا النص يتساوى الناس. فلا توجد حرية أكثر أو أقل من حرية أخرى، على مستوى النص والتشريع والقانون.

لكننا حين ننزل إلى الواقع التطبيقي نجد أن الحرية ليست واحدة في درجاتها. إنها، في تحققها الفعلي، متعددة. ثمة درجات شتى للحرية الفعلية. تعتمد هذه الحرية على ما يعزز قدرة الإنسان على الاختيار، أو على ما يقيد هذه القدرة. والناس ليسوا سواسية في قدرتهم الفعلية على الاختيار. ثمة درجات لهذه القدرة، وتعتمد هذه الدرجات على مدى تحرر الإنسان من الخوف والأوهام والتوقعات، بما في ذلك خوف الحاجة أو الحرمان أو اللعن، ومن القيود المفروضة، عدلا أو ظلما، على قدرته على الاختيار. وجود مرشح واحد لرئاسة الجمهورية، يجعل الاختيار في درجة الصفر. لأنك في هذه الحالة لست أمام عملية اختيار ومفاضلة

بين أشخاص متعددين للمنصب. إنما هو شخص واحد، إما أن "تختاره" أو أن لا تختار أحدا. إنك في هذه الحالة لا تمارس حرية الاختيار. التعددية في البدائل هي من الشروط التي يؤدي توفرها إلى تحرك الحرية (حرية الاختيار) من حالة القوة والكمون إلى حالة الفعلية والتحقق.

تنتقص درجة حريتك حين يفرض عليك الالتزام القبلي أو العلاقات الاجتماعية أو الالتزام الديني أو الوضع الاقتصادي أن تختار مرشحا دون غيره، دون إرادتك الحرة، خوفا من النتائج غير المرغوبة وغير المسرة لعدم الالتزام.

النقص في الحرية يؤدي إلى النقص في الديمقراطية، بطبيعة الحال. والعكس يصح، فكلما زادت كمية الحرية، وكلما زادت ضمانات ممارستها بدون عوامل التآكل والتأثير الخارجية، (خارج دائرة الاختيار الحر للإنسان) كلما زادت نسبة الديمقراطية في عملية الاختيار.

الحرية الأخرى المنسوبة للمعنى الأساسي للحرية، مثل حرية التعبير، وحرية الاجتماع، وحرية الصحافة، وغيرها، تزيد من ضمانات الديمقراطية. هذه حريات لا يمكن تصور الديمقراطية، بما هي عملية اختيار، بدونها. فحتى يكون المرء مختارا، وحتى يكون حرا في الاختيار، يجب أن يتمتع الناس بحرية الترشيح، ويجب أن يتمتع المرشحون بحرية التعبير، ويتمتع المواطنون بحرية الاجتماع. وبمعنى جامع، يجب أن يتمتع الجميع بحرية الدخول إلى السوق الديمقراطي بدون قيود أكثر من القيود التي يفرضها القانون الذي تمت كتابته وإلزام تطبيقه ديمقراطيا.

يؤكد الواقع العملي وجود علاقة متينة بين الديمقراطية والحرية وذلك من خلال المطابقة بين البلدان الحرة في العالم، والبلدان الديمقراطية فيه. وهي مطابقة تقود إلى اكتشاف ما هو متوقع: البلدان الديمقراطية هي البلدان الحرة، والعكس بالعكس. والبلدان الأقل حرية هي البلدان الأقل ديمقراطية. والعكس بالعكس أيضا.

أصدرت وحدة المعلومات في مؤسسة الايكونوميست البريطانية عام 2006

قائمة تضم دول العالم، مصنفة إلى أربعة أصناف، هي: الديمقراطيات الكاملة، الديمقراطيات المنقوصة، الأنظمة الهجينة، وأخيرا الأنظمة الشمولية. ويتم تصنيف دول العالم على أساس خمسة معايير هي:

العملية الانتخابية والتعددية، الأداء الحكومي، المشاركة السياسية، الثقافة السياسية، الحريات المدنية.

في المقابل، تقوم مؤسسة "فريدم هاوس" الأميركية برصد أوضاع الحرية في العالم، وتصدر سنويا تقريرا لدراسة حالة الحقوق السياسية والحريات المدنية في دول العالم المختلفة، وإعطائها درجات تتراوح من 1 إلى 7، حيث يؤشر رقم 1 إلى الدول الحرة، والرقم 7 إلى الدول غير الحرة، ويتم تصنيف الدول إلى ثلاثة أصناف هي: الدولة الحرة (من 1 إلى 2.5) والدول الحرة جزئيا (من 3 إلى 5) والدول غير الحرة (من 5.5 إلى 7). ويتم تقويم الدول على أساس 25 معيارا، 10 منها تتعلق بالحقوق السياسية، و15 منها تتعلق بالحريات المدنية. في مجال الحقوق السياسية هناك مؤشرات للانتخابات والتعددية السياسية والمشاركة السياسية وأداء الحكومة. وفي مجال الحريات المدنية هناك مؤشرات عن حرية التعبير والاعتقاد والحق في التجمع والتنظيم، والحقوق الشخصية والاستقلالية الفردية.

وقد أُجريت مقارنة ومطابقة بين قائمة الدول الديمقراطية (الايكونوميست) وقائمة الدول الحرة (فريدم هاوس) لنفس العام. ولم تقدني هذه المقارنة إلى مفاجئات أو نتائج غير متوقعة على صعيد العلاقة بين الديمقراطية والحرية.

فيما يلي، اعرض هذه النتائج ملخصةً:

أولا، الدول الـ 28 الأولى في قائمة الايكونوميست، تمثل ديمقراطيات كاملة full democracy. وهي كلها دول كاملة الحرية في قائمة فريدم هاوس. كل هذه الدول تأتي في قائمة الدول التي تمتع فيها الصحافة بحرية كاملة أيضاً في تقييم عام 2008.

نسبة التطابق هنا 100%.

ثانياً، هناك 53 دولة ذات ديمقراطية ناقصة أو ذات عيوب ومواضع خلل flawed democracy . من هذه الدول حرة جزئياً (30%)، و37 حرة (69.8%).

ثالثاً، هناك 30 دولة هجينة hybrid ، تجمع بين بعض العناصر الديمقراطية وبعض العناصر غير الديمقراطية في نظامها السياسي. دولة واحدة منها تعتبر حرة بمقاييس فريدوم هاوس (3%). 22 دولة حرة جزئياً (73%). وأربع دول فقط غير حرة (13%).

رابعاً، بلغ عدد الأنظمة المصنفة بأنها أنظمة سلطوية authoritarian في الدراسة 54 دولة. 18 دولة منها صنفت حرة جزئياً (33.3%)، و36 دولة غير حرة (66.7%). لا توجد دول حرة هنا.

ويمكن تلخيص الاستنتاج النهائي كما يلي: كل الديمقراطيات الكاملة موجودة في دول حرة، وأغلب الديمقراطيات الناقصة والهجينة تميل إلى أن تكون حرة أو حرة جزئياً. تميل أغلبية الأنظمة السلطوية إلى أن تكون غير حرة، والقليل منها تسمح بحريات جزئية. والمشاهدة العيانية تقبل الاستنتاج بأن مقدار الحرية المسموح به في هذه الأنظمة لا يمس القواعد الأساسية للدولة، وهذا هو شرط الحرية الناقصة في هذه الأنظمة.

ثمة سؤال أخير يستحق البحث لاحقاً: من الذي ينتج الآخر، هل الديمقراطية تنتج الحرية أم أن الحرية هي التي تنتج الديمقراطية؟

محمد عبد الجبار الشبوط



## تقديم المترجم

---

يشغل الفيلسوف البريطاني (النمساوي الأصل) السير كارل بوبر K. Popper موقعاً مميزاً في الفلسفة المعاصرة، ويُعدُّ بحق واحداً من أساطين العقلانية المنفتحة الذين لم يتخلوا عن ثقتهم بالعقل، ولم يتوانوا عن نبذ العنف والاستبداد، وعن التشديد على ضرورة سيادة الحوار العقلائي في حل الإشكاليات العالقة، على الرغم من الأزمات التي عصفت بالتفكير العلمي وبالقيم الثقافية والأخلاقية. لقد تميز عطاءه بسعة الاطلاع، وخصوبة الفكر، وعمق الرؤية، فأنتج العديد من المؤلفات الهامة، وكتب الكثير من المقالات الفلسفية، وألقى الكثير من المحاضرات الفكرية، على امتداد عمره المديد.

ولد كارل رايوند بوبر في فيينا سنة 1902، من أسرة تميزت باهتمامها الواسع بالمعرفة والعلم والثقافة. كان والده يعمل في المحاماة، وإلى جانب ذلك كان مهتماً بالكلاسيكيات والفلسفة. وكان حريصاً على تنشئة ابنه كارل على حب العلم، وحفزَه على قراءة الكتب ومصادر المعرفة المختلفة والتعرف مبكراً على المسائل الفلسفية والعلمية والسياسية، والنهل من ينابيع الفكر والثقافة.

أما والدته فقد كانت سيدة تعشق الموسيقى، وقد غرست في ولدها هذا الحب مبكراً حتى أنه كان يفكر في أن يتخصَّص في الموسيقى ويهبها عمره، بل اختار بالفعل تاريخ الموسيقى كموضوع ثان في امتحان الدكتوراه. وقد بقي بوبر وفيّاً/شغوفاً بالموسيقى خلال حياته، فقد كان يعزف على آلة البيانو ويرتاد قاعات

الموسيقى الكلاسيكية حول العالم. كما كان له تأملات عميقة/طويلة في الموسيقى يمكن للباحث المدقق أن يعثر عليها منبثة في بعض مؤلفاته. وهو يدين بالفضل إلى الموسيقى الغربية والبوليفونية (المتعددة النغم) تحديداً في إلهامه بالكثير من أفكاره الرئيسية، ويرى أنها كانت قوة دافعة له في تطوره الفكري. وقد تجلى ذلك بوضوح في تفسيره المبكر لبعض الأفكار المحورية في فلسفته، كالعلاقة بين الفكر الدوغمائي والفكر النقدي، وفي شرحه للفارق بين الموضوعية والذاتية.

في سنة 1919 اعتنق كارل بوبر الفكر الماركسي السائد آنذاك، إلا أنه تحوّل عنه بعد ذلك لقناعته بأن الماركسية تبرّر استخدام العنف وإراقة الدماء من أجل الثورة، ورأى إنه من غير المقبول/المبرّر، بل وليس من الأخلاقي، أن تتم التضحية بالنفس الإنسانية بهذه البساطة. وكان رفض بوبر للماركسية، دفعه إلى أن يصبح من ألد أعداء الفكر الماركسي أو بالأحرى كل أيديولوجية تؤمن بالاحتمية التاريخية، حتى إنه ألّف كتاباً أسماه (فقر المذهب التاريخي) وأهداه إلى ضحايا الفكر المتعصّب والحتمي والذي غلّف الفكر الإنساني بسجون فكرية مقبته تحدّد من حركة العقل الإنساني الخلاق والمبدع.

وقد تعرف في تلك الفترة على النظريات النفسية، وتحديداً نظريات التحليل النفسي لكل من سيغموند فرويد (1856-1939) وألفرد أدلر (1870-1937) - الذي انخرط بوبر تحت إشرافه في العمل الاجتماعي من أجل الأطفال المحرومين والأيتام. وحدث ذات يوم أن بوبر استمع إلى محاضرة علمية لألبرت اينشتاين (1879-1955) عن النظرية النسبية ألقاها في فيينا، وكانت ملاحظته لتلك الروح النقدية السائدة في اينشتاين والغائبة عن كارل ماركس وفرويد وأدلر هي الحدث الكبير الذي أيقظه من سباته المعرفي وقدر زناد فكره، وأوحى إليه بفكرة "التمييز" بين العلم واللاعلم أو ما أطلق عليه بالعلم الكاذب، والتي شكّلت - فيما بعد - مركز الدائرة في فلسفته بأسرها.

ترك بوبر منزل والديه بعد أن خسر والده كل أمواله في التضخم المالي الذي

تفاقم بعد الحرب العالمية الأولى، مما اضطره للعمل في وظائف متواضعة ليعول نفسه وينهي دراسته. فقد اشتغل نجاراً ثم عاملاً اجتماعياً حتى حصل على إجازة التدريس في المدارس الابتدائية سنة 1925. بعد ذلك نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة بأطروحته ((سيكولوجية التفكير)) سنة 1928. وفي السنة التالية حصل على إجازة لتدريس مادتي الرياضيات والفيزياء بالمدارس الثانوية.

في الفترة من 1937 وحتى 1945، درّس بوبر الفلسفة بجامعة كانتربري في نيوزيلندا وذلك بعد أن هاجر من النمسا خوفاً من تعقّب النازيين له (فهو ينحدر من أصل يهودي). وبعدهذا أصبح أستاذاً في معهد لندن للاقتصاد والعلوم السياسية (وهو جزء من جامعة لندن) حيث درّس علم المنطق ومناهج العلوم في الفترة من 1945 وحتى 1969. وفي الوقت نفسه كان يلقي سلسلة من المحاضرات العامة في أكبر الجامعات الأمريكية.

في سنة 1965 منحه ملكة بريطانيا لقب "سير" وهو أعلى تشريف تمنحه لمواطن. كما منحه الدمارك جائزة "سوننغ" من جامعة كوبنهاغن التي لم يحصل عليها إلا شخصيات كبيرة من طبقة الفيلسوف برتراند رسل (1872-1970) والزعيم السياسي السير ونستون تشرشل (1874-1965).

وضع بوبر عدداً من المؤلفات الهامة في مجال الفلسفة والفكر الإنساني عموماً، منها على سبيل المثال لا الحصر: (المشكلتان الرئيسيتان في النظرية المعرفية The Two Fundamental Problems of Knowledge)، (فقر المذهب التاريخي The Logic of Sci- المنطق الكشف العلمي)، (The Poverty of Historicism)، (المجتمع المفتوح وأعدائه The Open Society and Its Enemies)، (الحياة بأسرها حلول لمشاكل All Life is Problem Solving) وهو المؤلف الذي وردت فيه المحاضرة التي نقدمها مترجمة في هذا الكتاب.

تقاعد كارل بوبر عن العمل الأكاديمي في جامعة لندن سنة 1969، غير أنه ظل يمارس عمله الفكري والثقافي والإنساني بنشاط كبير ككاتب ومحاضر حتى

توفي سنة 1994 وقد ناهز اثنين وتسعين عاماً قضاها في خدمة التنوير والعقلانية وحقوق الإنسان.

إن من يتتبع مسيرة بوبر الفلسفية/الفكرية يجد أنها تقوم بصورة أساسية على مفهوم "العقلانية النقدية" - سمة التفكير العلمي - والتي تبني بالأساس على رفض الاتجاهات التشكيكية والتقليدية في مجال العلم والأخلاق، فضلاً عن انتقادها لطروحات الايديولوجيات الاستبدادية والشمولية المختلفة. كما دافع عما أطلق عليه بالمجتمع المفتوح/المنفتح، وكّرس في كتاباته/محاضراته العديدة لفكرة الديمقراطية والليبرالية ودافع عنهما ضد كل أنواع الأنظمة التوتاليتارية سواء أكانت شيوعية أم نازية أم فاشية.

يذهب بوبر في اتجاهه الفلسفي إلى نقد "المذهب التاريخي Historicism"، فقد دُلَّ على كذب هذا المذهب، استناداً إلى أن التاريخ الإنساني يتأثر تأثيراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية. ولا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية، أن نتوقع كيفية نمو معارفنا العلمية، ومن ثم، فلا يمكن التنبؤ بمستقبل حتمي لسير التاريخ الإنساني. وعلى هذا لا بد من رفض إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي قائم على علم الطبيعة النظري، ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح لأن تكون أساساً للتوقع التاريخي. وهذا إنما يؤكد عدم وجود حتمية في التاريخ، فكل معرفة بالتاريخ هي معرفة بما حدث، أي بعد أن يكون الوقت قد فات على التوقع.

لقد آمن بوبر بقيمة/دور/قدرة العقل الإنساني، وتبنى "النقد" أسلوباً/منهجاً/ طريقاً لعمل العقل وتقدّم المعرفة. إن النقد، كما يرى بوبر، يغذي الشك في أكثر القناعات رسوخاً لدى الأفراد ويُزعزع المسلّمات واليقينيات في عقول أولئك الأفراد، ويحثّ على الفضول الفكري، سواء في الميدان العلمي عبر اختبار النظريات وانتقادها والبحث عن نظريات أكثر قرباً من الحقيقة الموضوعية، أم من الناحية الإنسانية/الاجتماعية، فهو - أي النقد - يولد الشك وعدم الاطمئنان للمؤسسات

القائمة والبحث عن تطوير تلك المؤسسات وجعلها أكثر نضجاً وقرباً للواقع الاجتماعي. إذن، فالنقد هو المحرك الذي يُبقي المجتمع في حالة غليان فكري ويقظة عقلية.

كان بوبر من أكبر الداعين إلى ما أسماه "المجتمع المفتوح"، ذلك المجتمع الذي يفسح المجال لحرية التعبير والنشر والتغيير الديمقراطي السلمي. وبنبغي التركيز هنا على فكرة السلمي حيث أنه من أكثر الفلاسفة المعاصرين دعوة/تبنيًا لفكرة اللاعنف.

يذهب بوبر إلى أن المؤسسات التي يكون أفرادها على درجة عالية من الوعي بدور النقد هي المؤسسة التي ينتمي إليها إنسان الحداثة، ذلك أن النقد عنده هو المحرك الفعلي للمجتمع الإنساني من خلال كشف الأخطاء ومقاربة الواقع. فمجتمع بوبر المفتوح لا يؤمن بشي اسمه "وطن"، بسبب أن الوطن عند بوبر هو من صنع الحكومات وليس الأفراد. ويتساءل في هذا المجال: أين هو الشعب النقي الذي يشترك بأصل واحد ولغة واحدة ودين واحد؟ إنه من النادر، بل من المستحيل أن نجد هكذا شعب في عالم اليوم. إذن، فإن حدود الوطن والمواطنة هي من صنع الحكومات والأنظمة السياسية. ولكن، هل يدعو بوبر إلى نقض فكرة الوطن، وما هو البديل في رأيه؟

لقد أراد بوبر من نقض هذه الفكرة أن يشدّد على فكرة أخرى، فهو يرى أن المجتمعات لا تتكوّن من "الأغلبية" (الدينية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية) فحسب، ولكن من "الأقلية" أيضاً، وبالتالي ينبغي علينا احترام حقوق هذه الأقليات التي تُغني هذا المجتمع بدورها، وأن لا نسمح لفكرة الأغلبية أن تطغى على فكرة الأقلية لأن ذلك قد يغرس بذرة العنف في المستقبل.

لذلك دعا بوبر إلى فكرة الدولة الفيدرالية حيث يرى فيها حلاً وسطاً بين فكرة الوطن التي ليس لها محل في فكر بوبر، وبين احترام حقوق الإنسان للأفراد من ذوي الجذور المختلفة، والدين المختلف، والعادات والتقاليد المختلفة. لذلك

ينبغي على الكيانات التي تشكّل الوطن المتعارف عليه أن تحترم حقوق بعضها البعض، ولاسيما حقوق الآخر المختلف.

الحياة، في رأي بوبر، عملية متصلة من حل المشكلات، وبالتالي فإن آراءه/طروحاته/أفكاره تهدف إلى البحث عن ذلك المجتمع الذي يتصف بأنه موصل جيد لعملية حل المشكلات. وحيث إن هذا الحل يستلزم طرحاً جريئاً للحلول المقترحة التي توضع عندئذ على محك الاختبار النقدي لاستبعاد الحلول غير الناجعة ونبذ الأخطاء، فإن أصلح المجتمعات - كما يقول بوبر - هو ذلك الذي يسمح بالاختلاف ويصغي إلى الآراء كافة، ويتبع ذلك بعملية نقدية تُفضي بالنهاية إلى إمكان تغيير حقيقي إلى الأفضل. إن مجتمعا يتم تنظيمه وفقاً لهذه الرؤية سيكون أقدر من غيره على حل مشكلاته، ويكون من ثم أكثر نجاحاً في تحقيق أهداف مواطنيه مما لو نُظّم وفقاً لاعتبارات أخرى.

عقيل يوسف عيدان

## المراجع

- [www.ladeenyon.net/forum](http://www.ladeenyon.net/forum)
- عرابي، أسامة. كارل بوبر مدخل إلى العقلانية النقدية. موقع "معايير".
- عويضة، كامل محمد. 1995. كارل بوبر - فيلسوف العقلانية النقدية/سلسلة أعلام الفلاسفة. ط1. بيروت. دار الكتب العلمية.
- مجموعة من المؤلفين. 2004. الموسوعة العربية. المجلد 10. ط1. دمشق. هيئة الموسوعة العربية.
- مصطفى، عادل. 2002. كارل بوبر: مائة عام من التنوير ونضرة العقل. ط1. بيروت. دار النهضة العربية.





# **في الحرية \***

## **On Freedom**

\* محاضرة ألقاها كارل بوبر في ألباخ بتاريخ 25 أغسطس 1958.



# I

لا نعرف إلا القليل عن بداية استيطان الإنسان مناطق الألب النمساوية والسويسرية والفرنسية، وهي عملية تمت في أزمنة ما قبل التاريخ. لكن علينا أن نفكر حقا كيف تأتى للناس الذين مارسوا الزراعة وتربية المواشي الاستقرار في أودية جبال الألب العليا المتوحشة والوعرة المسالك حيث استطاعوا أن يعيشوا - على أفضل تقدير - حياة قاسية، جافة ومحفوفة بالمخاطر.

قد يكون التفسير الأكثر قرباً من الواقع هو أن هؤلاء الناس فضلوا حياة غير آمنة في البرية على أن يكونوا خاضعين لجيرانهم الأكثر قوة منهم. فقد اختار هؤلاء الحرية، رغم ما ينطوي عليه هذا الخيار من مخاطر وانعدام الأمن. أميل دائماً إلى العزف على نغمة الفكرة القائمة بأن تقاليد الحرية لدى السويسريين والنمساويين، بشكل خاص، تعود إلى الأيام الخوالي التي شهدت استيطان سويسرا في عصور ما قبل التاريخ.

وعلى أية حال، فإنه من المثير للانتباه حقيقة أن تكون بريطانيا وسويسرا، وهما أقدم دولتين ديمقراطيتين في أوروبا المعاصرة، تتشابهان في حبهما للحرية واستعدادهما للدفاع عنها. هذا، بالرغم من أن هذين البلدين، يختلفان في نواح كثيرة أخرى، خاصة في أصولهما السياسية.

تدين الديمقراطية البريطانية في نشأتها إلى إحساس بالكبرياء والاستقلالية عند الطبقة الأرستقراطية، وفي تطورها اللاحق، إلى نمط التفكير البروتستانتي، والضمير الشخصي والتسامح الديني - وهي تطورات حصلت في أعقاب الصراعات السياسية والدينية الكبرى التي اقترنت بالثورة البيوريتانية<sup>1</sup>.

---

1. الثورة البيوريتانية (التطهيرية) Puritan Revolution: صراع سياسي جرى في السنوات (1603-1649) بين الملكين الإنجليزيين جيمس الأول وتشارلز الأول من ناحية، والحزب البرلماني البيوريتاني من ناحية ثانية، بسبب تمسك الملكين بنظرية حق الملوك الإلهي. وقد أدى هذا الصراع إلى نشوب الثورة الإنجليزية وإعدام الملك تشارلز الأول سنة 1649. (المترجم)

أما الديمقراطية السويسرية فلم تنشأ من الإحساس بالكبرياء والاستقلالية عند الأرسقراطيين، وإنما من الشعور بالاعتزاز والاستقلالية والفردانية لمزارعي الجبال. أدت هذه البدايات والتقاليد المختلفة تماماً إلى قيام مؤسسات تقليدية مختلفة وإلى منظومات قيم تقليدية مختلفة. فما يتوقعه أو يأمله شخص سويسري أو مساوي من الحياة - فيما أعتقد - يختلف بصفة عامة عما يتوقعه أو يأمله شخص بريطاني منها.

من المحتمل أن يكون الاختلاف بينهما منبعثاً جزئياً من الاختلاف في نظم التعليم، لكن هذا الاختلاف في نظم التعليم يجد تفسيره في التناقضات التاريخية والاجتماعية التي أشرت إليها.

لقد كان التعليم في بريطانيا حتى هذا القرن امتيازاً تختص به طبقة النبلاء والملاكون؛ فلم يكن يتمتع به المواطنون وأبناء الطبقة الوسطى ولكنه كان حكراً على العائلات الكبرى صاحبة الأملاك فقط. هذه العائلات الكبرى كانت هي حاملة الثقافة، ومنها خرج الباحثون والعلماء (الذين غالباً ما كانوا أصحاب نفوذ) وأصحاب الوظائف العليا كالسياسيين، والكهنة، والقضاة والضباط.

على العكس من ذلك كان حاملو الثقافة في بقية أرجاء القارة مواطنين عاديين ينتمي معظمهم للطبقة الوسطى. فالتعليم والثقافة لم يكونا مما يرثه الفرد، إنما كانا مما يكتسبه الفرد بنفسه. لم يكن التعليم والثقافة رمزاً لوضع اجتماعي موروث، ولكنهما كانا وسيلة ورمزاً للتقدم الاجتماعي، وللتحرر الذاتي عن طريق المعرفة.

هذا يفسر أيضاً لماذا كان الصراع المظفر ضد الفقر في بريطانيا شكلاً من أشكال استمرار الصراعات الدينية على مستوى آخر، وهو الصراع الذي لعب فيه استدعاء الوعي الديني من قبل الأرسقراطيين والطبقة الوسطى دوراً حاسماً، بينما كان الصراع ضد الفقر في سويسرا والنمسا من وحي فكرة التحرر الذاتي عن طريق المعرفة،

الرؤية العظيمة للتعليم التي جاء بها الفيلسوف بستالوزي<sup>2</sup> Pestalozzi's.

على الرغم من كل هذه الاختلافات العميقة، فإن بريطانيا وسويسرا كلاهما تعرفان أن هناك قيماً ينبغي الدفاع عنها بأي ثمن، وفي مقدمة هذه القيم الاستقلال الشخصي والحرية الشخصية. وتعلمتا كلاهما أن الحرية مما ينبغي النضال من أجلها، وأن على المرء أن يواصل ذلك حتى لو بدا احتمال النصر ضعيفاً.

في سنة 1940 حينما كانت بريطانيا تحارب وحدها من أجل الحرية، لم يعد تشرشل<sup>3</sup> Churchill البريطانيين بالنصر. إنما قال: "لا أستطيع أن أعدكم إلاّ بالدماء والدموع". غير أن هذه الكلمات منحت بريطانيا الشجاعة لمواصلة القتال.

وفي سويسرا أيضاً، كان الإصرار التقليدي على الصراع - حتى لو كان ضد عدو متفوق مثل الهابسبورغ<sup>4</sup> Habsburgs والرايخ الثالث<sup>5</sup> فيما بعد - هو ما مَنَّ السويسريين من استعادة حريتهم إبان الحرب العالمية الثانية.

2. جان هنري بستالوزي 1837-1746: J.H. Pestalozzi: عالم تربية سويسري. تُعرف فلسفته التربوية باسم البستالوزية. وضع فلسفته التربوية انطلاقاً من أفكار حركة التنوير الفرنسية وعلى وجه الخصوص الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو وانطلاقاً من كتابه (إميل) وضع مبدأه المعروف في التربية وهو "المبدأ الثلاثي"، ويُعرف بالإنجليزية بـ "Three H", أي القلب Heart، واليد Hand، والرأس Head. (المترجم)
3. ونستون تشرشل 1874-1965: W. Churchill: سياسي بريطاني، وزعيم حزب المحافظين. يعتبر أحد أبرز رجال السياسة في العالم خلال الثلث الثاني من القرن العشرين. قاد بريطانيا من حافة الهزيمة إلى النصر في الحرب العالمية الثانية. (المترجم)
4. هابسبورغ، أسرة هابسبورغ Hapsburg: أسرة من أهم الأسر الأوروبية الحاكمة. حكمت النمسا 1278-1918، والنمسا - المجر 1867-1918، والإمبراطورية الرومانية المقدسة 1438-1806، وإسبانيا 1516-1700. وقد عرفت هذه الأسرة برجعتها الشديدة وتأييدها الكاثوليكية تأييداً مطلقاً. (المترجم)
5. الرايخ الثالث Third Reich: اسم يطلق على الفترة التي سيطرت فيها النازية، بزعامة أدولف هتلر على ألمانيا (-1933 1945) وذلك على اعتبار أن الإمبراطورية الألمانية (1871-1919) هي الرايخ الثاني. (المترجم)

## 2

أخشى أن تكون الطبيعة الأخاذة لألباخ<sup>6</sup>، وهذا التفاعل الرائع بين الطبيعة والإنسان، وبين حب الوطن والاجتهاد، قد غلّف كلماتي التمهيدية هذه بشيء من العاطفة والرومانسية<sup>7</sup>. لذا أجد نفسي مضطراً أن أضع هذه الكلمات ذات الصبغة العاطفية والرومانسية في قالب آخر مضاد للرومانسية - وبصفة خاصة ضد الاتجاه الرومانسي في الفلسفة. إنني أريد أن أبدأ هذه المقدمة الثانية باعتراف.

من المهم بالنسبة لي أن لا يتم التعامل بما سوف أقوله من موقع التصديق، على العكس من ذلك فإنني أفضل أن يتم التعامل معه من موقع الشك.

على النقيض من العديد من زملائي الفلاسفة، فأنا لست رائداً لطريق جديد، ولا مبشراً باتجاهات جديدة في الفلسفة. أنا على عكس ذلك، فيلسوف "قديم الطراز" يؤمن بفلسفة قديمة؛ هي فلسفة عصر مضى منذ زمن طويل، ذلك هو عصر العقلانية والتنوير.

كواحد من آخر المقاتلين من أجل العقلانية والتنوير، فإنني أوّمن بالتحريير

---

6. أجمل قرى النمسا، تقع على هضبة مشمسة ترتفع ألف متر على البحر. تم اختيارها في عام 1983 كأجمل قرية في البلاد. (المراجع)

7. الرومانسية Romanticism: حركة أدبية وفنية وفلسفية برزت ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر واستمرت حتى منتصف القرن التاسع عشر، نادى بتفوق العاطفة على العقل. تميزت بتركيزها على طلب الحرية والإغراق في الغنائية وعلى الإحساس الغامض وعلى الفكرة الواضحة المحدودة المعالم، وكذلك التعبير عن تأزم الفكر والإرادة والقلق والكآبة والتشاؤم والتمزق والشعور بالجزرية وتقديم الخيال على العقل وتفضيله على التحليل النقدي والهرب من الواقع والتمسك بالدين والميل إلى الغامض والخوارق والأساطير والتركيز على الذات تركيزاً أساسياً. (المترجم)

الذاتي للإنسان الذاتي عن طريق المعرفة - بالضبط كما آمن كانت<sup>8</sup> Kant أعظم فلاسفة التنوير، أو كما حارب بستانلوزي الفقر بالمعرفة.

لذلك أحب أن أقول بوضوح أنني أعرض هنا آراء تُعتبر فات أو أنها وخاطئة بالكامل منذ حوالي 150 سنة. ذلك أنه قبيل سنة 1800 كانت الفلسفة الرومانسية<sup>9</sup> تعتبر التنوير مجرد محاولة استكشافية أو رمزاً للقمامة. ولكنني، ولسوء الحظ، متخلف جداً لدرجة أنني لازلت أتمسك بهذه الفلسفة البالية والعتيقة.

وبسبب تخلفي هذا، فإنني لا أستطيع أن أرى في فلسفة الرومانسية - وبصفة خاصة في فلسفة الرواد الثلاثة الكبار للمثالية الألمانية: فيخته<sup>10</sup> Fichte،

8. إيمانويل كانت 1724-1804: I. Kant: أكبر فلاسفة الألمان، لا بل وأوروبا قاطبة، يعد نموذج للفيلسوف التنويري. سعى عبر أفكاره العقلانية والتنويرية والتجريبية إلى القضاء على آخر آثار أفكار القرون الوسطى. مهدت أفكاره الطريق لكثير من الفلاسفة في القرنين التاسع عشر والعشرين. ولعل من أشهر مؤلفاته: (نقد العقل الخالص)، و(نقد العقل العملي)، و(نقد ملكة الحكم) و(مشروع للسلام الدائم). (المترجم)

9. الرومانسية الفلسفية Philosophical Romanticism: يطلق هذا المصطلح على مذاهب الفلاسفة الألمان، الذين عاشوا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وأشهرهم فيخته وشيلينغ وهيغل وشوبنهاور. وتتميز مذاهب هؤلاء الفلاسفة بالخصائص الآتية:

\* معارضة اتجاهات القرن السابع عشر، التي كانت تقوم على تمجيد العقل واعتباره القيمة الأولى في الإنسان.

\* التركيز على العاطفة وعلى الطبيعة، لأن هذه الأخيرة وسيط بين الإنسان والله.

\* إحياء الوعي الديني وإعادة اكتشاف الفولكلور لأنه يمثل روح الشعوب ومصدر إلهامها.

\* التعلق بفكرة الحياة وفكرة اللانهاية، وإعادة الاعتبار للحس والحرية والعفوية. (المترجم)

10. جوهان غوتليب فيخته 1762-1814: J. G. Fichte: فيلسوف ألماني نادى بالقومية وقال بالمثالية الذاتية بعد أن طور/عارض مثالية الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت مبتدعاً مثالية مطلقة لا تعترف إلا بحقيقة واحدة هي الأنا أو الذات. ولكن، في أواخر حياته أخذ ينعطف بعض الشيء نحو المثالية الموضوعية. بعد كتابه (خطابات إلى الأمة الألمانية) من أهم العوامل التي استحثت الشعوب الألمانية للاتحاد في أمة ذات إطار دستوري واحد ومتكامل. (المترجم)

وشيلينغ<sup>11</sup> Schelling وهيغل<sup>12</sup> Hegel - سوى كارثة فكرية وأخلاقية؛ بل أكبر كارثة فكرية وأخلاقية ابتلى بها الفكر الألماني والأوروبي.

هذه الكارثة الفكرية والأخلاقية كان لها، في رأيي، تأثير مدمر ومُفسد مازال يمتد كسحابة نووية. هذه الكارثة التي أوجدت ما أسماه كونراد هايدن<sup>13</sup> Konrad Heiden منذ سنوات في كتابه عن هتلر "عصر انعدام الذمة الفكرية والأخلاقية". إن روح العصر، أو الحركة التي تستلهم روح العصر لن يكون من السهل إيقافها، على الأقل ليس من قبل مناضل متنور متأخر، مثلي، يعي قوة الموضة أو روح العصر، لكنه ليس مستعداً للاستسلام.

على عكس المرجعيات المعاصرة والرومانسية العظيمة، فإنني لا أعتقد أن مهمة الفيلسوف هي التعبير عن روح عصره. إنني أعتقد - مثل نيتشه<sup>14</sup> - أنه

11. فريدريك شيلينغ 1854-1775: F. Schelling: فيلسوف ألماني، وأحد الفلاسفة المثاليين الكلاسيكيين. شغل منصب أستاذ في عدد من الجامعات، وكان عضواً في أكاديمية العلم في ميونخ. قال بالوحدة بين العقل والطبيعة، وارتبط اسمه بالمدرسة الرومانسية. تطورت فلسفته في سنواته الأخيرة إلى فلسفة الأسطورة والكشف، وكان تركيزه الشديد على العناصر الصوفية. من مؤلفاته: (مذهب المثالية المتعالية) و(فلسفة البحث في جوهر الحرية الإنسانية) و(الفلسفة والدين). (المترجم)
12. فلهلم هيغل 1831-1770: W. Hegel: قد يكون هيغل أعظم فيلسوف مثالي موضوعي، فهو صاحب الأثر الأكبر في الفكر السياسي الحديث بدءاً من كارل ماركس وسواه. تولى كرسي الأستاذية في جامعة برلين، حيث أصبح "المفلسف" الرسمي للدولة البروسية. أكد أن العالم المحدود لا يعدو أن يكون انعكاساً للعقل، الذي هو وحده حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى في هذا العالم. وقد وضع هيغل الديالكتيكية/الجدلية الحديثة بقوانينها الثلاث، وكان يرى أن التطور الجدلي هو تطور الفكرة. (المترجم)
13. كونراد هايدن 1966-1901: K. Heiden: مؤرخ وصحفي اشتهر في جمهورية فايمار وعصر النازية. (المترجم)
14. فريدريك نيتشه 1900-1844: F. Nietzsche: فيلسوف ألماني وأستاذ فقه اللغة في جامعة بازل بسويسرا. قال بمذهب إرادة القوة وقال بضرورة إعادة النظر في جميع القيم، وقال أيضاً بأن الأخلاقية التقليدية المسيحية قد أضعفت روح الصراع في الإنسان، وقد اعتبر أن ثمة نوعين من الأخلاق؛ أخلاق السادة وأخلاق العبيد. أشهر آثاره: (هكذا تكلم زرادشت)، و(ما وراء الخير والشر)، و(غسق الآلهة). (المترجم)



ينبغي على الفيلسوف أن يتفحص بشكل مستمر انه لم يبدأ بتقديم التنازلات لروح العصر التي تعرض استقلاليته الفكرية للخطر. إنني أتفق تماماً مع هوغو فون هوفمنشتال<sup>15</sup> Huge Von Hofmannsthal عندما قال في (كتاب الصداقة): ((الفلسفة يجب أن تكون "قاضية" زمانها، سيكون من السيء أن تتحول إلى تعبير عن روح عصرها)).

### 3

لن يكون للثم التي أوجهها إلى نفسي، واعترافي بأنني أنتمي للعقلانية وبأنني أحد رجال التنوير أي معنى ما لم أوضح باختصار ما أعنيه بالعقلانية والتنوير.

عندما أتحدث عن العقلانية، فإنني لا أفكر بها كنظرية فلسفية - مثل ديكارت<sup>16</sup> Descartes مثلاً - ولا كأعتقاد غير معقول بأن الإنسان كائن عاقل بصورة محضة.

كل ما أعنيه عندما أتكلم عن العقل أو العقلانية، هو الإيمان بأننا نستطيع "أن نتعلم" عن طريق نقد أخطائنا وزلاتنا، وبصفة خاصة نقد الآخرين لنا، وأخيراً عن طريق النقد الذاتي أيضاً.

- 
15. هوغو فون هوفمنشتال 1874-1929: H. V. Hofmannsthal: شاعر وكاتب مسرحي نمساوي. دخل الساحة الأدبية في سن صغيرة جداً، أسس مع ماركس رينهارت مهرجان سالزبورغ، الذي قدم عروضاً مسرحية منتظمة وهامة. من أبرز آثاره (النبى). (المترجم)
16. رينه ديكارت 1596-1650: R. Descartes: فيلسوف فرنسي وعالم رياضي وأحد مؤسسي الهندسة التحليلية، ترتبط فلسفته ارتباطاً وثيقاً بنظريته في الرياضيات وعلم نشأة الكون والفيزياء، وقد صاغ القانون العام للفعل والفعل المضاد، وحدد الغاية القصوى من المعرفة بأنها تحكم الإنسان في قوى الطبيعة. في سنة 1663 أدرجت الكنيسة مؤلفاته في لائحة الكتب المحرمة. من أشهر مؤلفاته: (تأملات في الفلسفة الأولى)، و(مبادئ الفلسفة) و(مقالة في المنهج). (المترجم)

العقلاني هو ببساطة، ذلك الشخص الذي يعتبر التعلم أكثر أهمية من البرهنة على كونه على صواب؛ الشخص الذي يرغب بالتعلم من الآخرين، لا بمعنى الهيمنة على أفكار الآخرين، ولكن بمعنى أن يسمح بطيب خاطر للآخرين بنقد آرائه، وأن ينقد بطيب خاطر آراء الآخرين. ما أشدد عليه هنا هو فكرة النقد، أو بتعبير أدق، "المناقشة النقدية".

إن العقلاني الحقيقي لا يعتقد أنه أو غيره يمتلك الحقيقة؛ و لا يرى أن مجرد النقد يساعدنا على الوصول إلى أفكار جديدة. ولكنه يرى أن المناقشة النقدية هي فقط ما تساعدنا على التمييز في حقل الأفكار بين الغث والسمين. إنه يعرف جيداً أن قبول أو رفض فكرة ما ليست مسألة عقلية بحتة، ولكنه يعتقد أن المناقشة النقدية وحدها التي تمنحنا النضج اللازم الذي يمكننا من رؤية الفكرة من جوانب عدة، ومن الحكم عليها حكماً صحيحاً.

لهذا التقييم للمناقشة النقدية جانبه الإنساني، فالعقلاني يعرف على نحو كامل أن المناقشة النقدية ليست العلاقة الوحيدة بين البشر، بل على العكس من ذلك انه يعرف أن المناقشة النقدية العقلانية لا مكان لها في حياتنا إلا نادراً.

ولكنه مع هذا يعتقد أن موقف "الأخذ والعطاء"، وهو المبدأ الجوهرى في المناقشة النقدية، ذو دلالة كبرى من الناحية الإنسانية. إذ يعرف العقلاني أنه يدين بعقله للآخرين، يعرف أن الموقف النقدي العقلي هو فقط نتيجة لنقد الآخرين، وأنه فقط عبر نقد الآخرين يمكن للإنسان أن يصل إلى النقد الذاتي.

يمكن شرح المقترَب العقلاني على النحو الآتي: قد أكون أنا مخطئاً وأنت على حق، ولكن يمكننا أن نأمل معاً وبعد النقاش المشترك أن نرى الأشياء بشكل أكثر وضوحاً من قبل، ما دمنا نتذكر أن اقتربنا أكثر من الحقيقة أكبر أهمية من مَنْ مَنَّا على حق. و فقط بوجود هذا الهدف في أذهاننا، يمكننا أن ندافع عن أنفسنا بأفضل ما يكون في أية مناقشة.

هذا، باختصار ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانية. ولكن عندما أتحدث عن التنوير، فإنني أعني شيئاً آخر، أيضاً.

إنني أفكر قبل أي شيء آخر، بفكرة التحرر الذاتي عن طريق المعرفة، تلك الفكرة ألهمنا إياها كل من كانت وبستالوزي. كما أفكر بواجب كل مفكر والمتمثل في مساعدة الآخرين على تحرير عقولهم وفهم المقترَب النقدي - وهو الواجب الذي نسيه أغلب المفكرين منذ عصر فيخته وشيلينغ وهيغل.

لسوء الحظ، من الشائع جداً بين المفكرين أنهم يريدون التأثير على الآخرين، أو، كما قال شوبنهاور<sup>17</sup> Schopenhauer، أسرهم وليس تعليمهم.

إنهم يتصرفون كقادة أو أنبياء - جزئياً لأنه من المتوقع منهم أن يظهروا كأنبياء، أو مُنيطي اللثام عن السر الغامض للحياة والعالم والإنسان والتاريخ والوجود.

هنا، كما يحدث غالباً فإن الطلب المتواصل يستجلب عرضاً، فيتم البحث عن قادة وأنبياء، وليس من المفاجئ أن يتم العثور على قادة وأنبياء. ولكن "الراشدين ليسوا بحاجة إلى مرشدين"، كما قال هـ. ج. ويلز<sup>18</sup> H.G.Wells ذات مرة. فالراشدون ينبغي أن "يعرفوا" أنهم ليسوا بحاجة إلى قادة. أما بالنسبة للأنبياء، فإنني اعتقد أن واجب كل مفكر أن يتعد عن مظاهر النبوة.

---

17. آرثر شوبنهاور 1860-1788: A. Schopenhauer: فيلسوف مثالي ألماني. يعتبر فيلسوف التشاؤم الحديث. كان العدو للدادية والجدل، وقد وضع المثالية الميْتافيزيقية معارضة منه للفهم المادي للعالم. أشهر مؤلفاته: (العالك كإرادة وتصوّر) وقد صدر في سنة 1819. (المترجم)

18. هربرت جورج ويلز 1866-1946: H. G. Wells: روائي وصحافي وعالم اجتماع ومؤرخ شعبي انجليزي. كان له في مطلع القرن العشرين نفوذاً فعالاً في الحركة الهادفة إلى إجراء تغييرات في المجتمع والأخلاق والعادات الدينية. يعتبر من مؤسسي أدب الخيال العلمي، وقد اكتسب شهرته بفضل رواياته التي تنتمي لذاك الجنس الأدبي. من أبرز أعماله الروائية: (آلة الزمن)، (الرجل الخفي)، (الحرب بين العوالم). كما له من الكتب: (موجز التاريخ) و(علم الحياة). (المترجم)

## 4

ما الذي يميز مُقْتَرَبَ التنوير عن مقْتَرَبِ مُدَّعي النبوة؟

الجواب: اللغة. فالمفكر التنويري يتكلم بلغة بسيطة قدر الإمكان، فهو يريد أن يكون مفهوماً. وفي هذا الخصوص يعتبر برتراند رسل<sup>19</sup> B. Russell المعلم الذي لا يتفوق أحد من الفلاسفة عليه في الوضوح. حتى عندما لا تتفق معه - أي المفكر التنويري - فلن تملك سوى الإعجاب به، فهو يتحدث دوماً بوضوح، وبساطة وبصورة مباشرة.

لماذا تمثل بساطة اللغة أهمية كبيرة بالنسبة لمفكري التنوير؟

لأن المفكر التنويري الحقيقي، العقلاني الحقيقي، لا يستهدف التأثير على أي شخص بأي اتجاه. لا، انه لا يستهدف الإقناع؛ إنه على وعي طول الوقت بأنه من الممكن أن يكون على خطأ. وفوق كل شيء، إنه يحترم الاستقلالية العقلية للآخرين بدرجة عالية تحول دون استهداف إقناعهم بأشياء هامة.

إنه يدعو بالآخرى إلى الاختلاف في الرأي، مفضلاً صيغة النقد العقلاني والمنظم. إنه لا ينشد الإقناع، بل استنهاض الآخرين وتحديثهم لبلورة آرائهم الحرة. إن بلورة الرأي الحر هي ما تشكل أهمية خاصة بالنسبة له.

وبناء الرأي الحر - وفقاً له - هو ما له قيمة فقط، ليس لأن ذلك يجعلنا نقرب أكثر من الحقيقة فقط، بل لأنه يحترم صياغة الرأي

---

19. برتراند رسل 1872-1970 B. Russell: فيلسوف ومنطقي وداعية سلام بريطاني. ساهم مساهمة فعّالة في تطوير المنطق الرياضي الحديث. ذهب إلى القول بأن الفلسفة تستمد قضاياها من العالم الطبيعي وأن مهمتها تتمثل في تحليل وتفسير مفاهيم العالم الطبيعي تحليلاً وتفسيراً محسوسين. ويقول رسل أيضاً إن ماهية الفلسفة هي المنطق والتحليل المنطقي للغة. من مؤلفاته: (مبادئ الرياضيات)، و(الدين والعلم)، و(حكمة الغرب) و(السلطة والفرد). (المترجم)

الحر أيضاً. إنه يحترمه حتى لو كان يعتبره على خطأ.

يكمن أحد أسباب عدم رغبة المفكر التنويري بالتأثير على الناس أو إقناعهم في الآتي: لأنه يعرف انه، خارج نطاق المنطق والرياضيات الضيق، لا يمكن إثبات شيء. من الممكن، بالطبع، تقديم براهين وبحث وجهات النظر بحثاً نقدياً، إلا أنه خارج المبادئ الأولية للرياضيات، فإن براهيننا ليست حاسمة أو خالية من الشغرات.

يجب علينا دوماً أن نعيد تقييم القضايا، وأن نقرّ دوماً أيّ منها ذات وزن أكبر؛ تلك التي تدعم رأياً معيناً أو تقف ضده. في النهاية، تتضمن صياغة الرأي، إذن، عنصر الحكم الحر. هذا الحكم الحر يجعل من الرأي ذا قيمة إنسانية ثمينة.

لقد تبنّى التنويريون منذ جون لوك<sup>20</sup> J. Locke هذا التقدير المرموق للرأي الفردي الحر. وكان هذا بلا شك، الثمرة المباشرة لـ الصراعات الدينية الإنجليزية والأوروبية؛ التي أنتجت، في النهاية، فكرة التسامح الديني.

ولست فكرة التسامح الديني فكرة سلبية على الإطلاق، كما يدّعي البعض - على سبيل المثال: أرنولد توينبي<sup>21</sup> A. Toynbee - فهي ليست مجرد تعبير

---

20. جون لوك 1704-1632: فيلسوف انجليزي، اشتهر بدعوته إلى التسامح الديني، وبتدفاعه عن حقوق الإنسان الطبيعية. عارض نظرية "الحق الإلهي" وقال بأن الاختبار أساس المعرفة. يعتبر مؤسس المدرسة الحسية/التجريبية الحديثة. كان يرى بأن مهمتنا أن لا نعرف كل شيء، بل فقط ما هو هام بالنسبة لسلوكنا وحياتنا العملية. تأثر بأرائه التحررية كثير من أفراد الثورتين الأمريكية والفرنسية. (المترجم)

21. أرنولد جوزيف توينبي 1889-1975 (A. J. Toynbee): مؤرخ ومفكر بريطاني. يعد من أبرز/أشهر فلاسفة التاريخ في العالم. يعتبر من أبرز ممثلي فلسفة التاريخ "التأملية". وضع نظرية الشهيرة "التحدي والاستجابة" في كتابه الكبير (دراسة للتاريخ) الذي يقع في اثني عشر مجلداً. من مؤلفاته الأخرى: (الحضارة في الميزان). (المترجم)

عن الاجهاد من الحرب ولا تعبيراً عن إدراك أن الخوف لا يوفر أية إمكانية لفرض الامتثال الديني. على العكس من ذلك، فإن التسامح الديني انطلق من الناحية المقابلة، من الفهم الإيجابي بأن الإجماع الديني المفروض لا قيمة له، وأن الاعتقاد الديني الحر هو "فقط" ما يمكن أن يكون ذا قيمة.

إن فهم التسامح الديني على هذا النحو يقودنا إلى ما هو أكثر من ذلك. فهو يقودنا إلى احترام كل إيمان صادق، وبالتالي احترام الفرد ورأيه الخاص. أو بعبارة إيمانويل كانت، آخر فلاسفة التنوير العظام، فإن هذا يقودنا إلى الاعتراف بقيمة الإنسان ذاته.

وفي حديثه عن قيمة الإنسان، فإن كانت يعني أن كل إنسان ومعتقداته، يجب أن يكونا موضع احترام.

يربط كانت هذه القاعدة بمبدأ هيلل<sup>22</sup> Hillelian Principle، الذي يطلق عليه الإنجليز وبصدق القاعدة الذهبية، ولكنه يبدو للألمان شيئاً مألوفاً: ((لا تفعل للغير ما تكره أن يفعله بك الغير)).

يربط كانت بشدة هذا المبدأ بفكرة الحرية - حرية الفكر التي طالب بها شيلر<sup>23</sup> في مسرحيته دون كارلوس، في حوار المركيز دي بوزا مع ملك إسبانيا<sup>24</sup> فيليب الثاني<sup>25</sup>؛

22. مبدأ هيلل Hillelian Principle: يعود هذا المبدأ لرجل دين اسمه هيلل Hillel ولد بعد السبي البابلي التاريخي. كان يعتقد بأن التوراة يمكن اختزالها في جملة واحدة أو مبدأ واحد هو: "افعل للغير ما تود أن يفعله الغير لك". (المترجم)

23. شيللر 1759-1805 شاعر وفيلسوف ومؤرخ ألماني، ألف مسرحية دون كارلوس عام 1787. (المراجع)

24. الفصل الثالث، المشهد العاشر من المسرحية. (المراجع)

25. فيليب الثاني 1528-1598 حكم اسبانيا من عام 1556 إلى وفاته، وكان المركيز دي بوزا من اقرب أصدقائه. (المراجع)

حرية الفكر التي أراد سبينوزا<sup>26</sup> تسويغها بالادعاء بأنها غير قابلة للتحويل، وانه مهما حاول الطغاة أن ينتزعوها منا فإنهم لن يتمكنوا من ذلك.

أعتقد أنه لم يعد بالإمكان أن نتفق مع سبينوزا في هذه النقطة. ربما كان صحيحاً أن حرية الفكر لا يمكن أن تكبت بصورة تامة، ولكنها من الممكن أن تكبت لدرجة كبيرة. بدون تبادل حر للأفكار لا يمكن أن توجد حرية فكر حقيقية. فلكي نتأكد من منطقية أفكارنا نحتاج إلى الآخرين لاختبارها.

إن المناقشة النقدية هي أساس الفكر الحر لكل فرد. وهذا يعني، من ناحية ثانية، أن حرية الفكر مستحيلة بدون حرية سياسية. ويعني ذلك أيضاً أن الحرية السياسية شرط مسبق للاستخدام العقلي لكل فرد.

لقد حاولت أن أوضح باختصار ما أفهمه من العقلانية والتنوير. كما حاولت، في الوقت نفسه، أن أعبّر باختصار لماذا تتطلب العقلانية - كما أفهمها - وكذلك التنوير حرية الفكر، والحرية الدينية، واحترام الآراء الصادقة للآخرين، وأخيراً الحرية السياسية. لكنني لا أدعي أن العقلانية وحدها من تحب الحرية أو تستطيع تسويغ مطلب الحرية.

على العكس، أنا أعتقد أن هناك مواقف أخرى، وبخاصة المواقف الدينية، تتطلب حرية الضمير، ومن هذا المطلب وصلت إلى احترام رأي الآخرين وتسويغ مطلب الحرية السياسية.

وإذا كنت قد حذرت قبل قليل، وبسخرية، من عقلانيتي العتيقة، فإنني أريد الآن أن أكرّر هذا التحذير بكل جدية، لأنني عقلاني، لا أريد أن أعير عقيدة أي

---

26. باروخ (بنديكتوس) دو سبينوزا 1677-1632: B. Spinoza: فيلسوف هولندي. اشتهر بمذهبه في وحدة الوجود وبقي نضاله في سبيل حرية الفكر مغموراً. خصّ الكفاح من أجل الحرية بكتابه (اللاهوت السياسي)، وحارب المتمسكين بالخرافات الذين ((يخترعون ما لا يحصى من التخييلات ليفسروا الطبيعة، حيث تتبدى لهم المعجزات في كل شيء كما لو كانت الطبيعة تشاركهم الهديان)). (المترجم)

شخص. كما لا أريد أن أسيء استعمال الحرية لجعل أي شخص آخر عقلاً.

ولكنني أدعو الآخرين للاختلاف معي، أرغب بقدر الإمكان أن أبعث في الآخرين الرغبة في رؤية الأشياء في ضوء جديد، لكي يتسنى لكل واحد أن يتخذ "قراره الخاص" بأقصى درجة ممكنة من حرية تشكيل الرأي.

يجب على كل عقلائي أن يقول مع كانت: لا يمكن للمرء أن يُعلّم الفلسفة ولكن على الأكثر يمكنه أن يتفلسف؛ وهذا يعني موقفاً نقدياً.

## 5

لا نعرف، بالطبع، على وجه التحديد من أين ينبع التفلسف، أي هذا الموقف النقدي. ولكن، الدلائل تشير إلى أنه شيء نادر، ومن ثم يمكن اعتباره - بغض النظر عن القيم الأخرى - قيمة نادرة.

إن ما نعرفه إلى حد ما، إنه ظهر في اليونان وإن طاليس المالطي <sup>27</sup>Thales Of (T) Mi- letus مؤسس المدرسة الأيونية <sup>28</sup> Ionian School للفلسفة الطبيعية هو الذي ابتدعه.

27. طاليس المالطي 624- 547 ق.م: أول فيلسوف إغريقي عرفه التاريخ. وقد اعتبروه أحد الحكماء السبعة، وثمة أسطورة تقول إنه أتقن علوم مصر وبابل الرياضية والفلكية. قال بأن الماء أصل الأشياء كلها، واكتشف عدداً من النظريات الهندسية. رفض الأخذ بالخرافات والأساطير. (المترجم)

28. المدرسة الأيونية الفلسفية Ionian School Of Philosophy: اسم جامع يطلق على عدد من فلاسفة اليونان الذين عاشوا في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، مثل طاليس، وأناكسمندر، وأناكسيمينس، وهرقليطس وهيبون. لقد كانت أيونيا مركز نشاط هؤلاء الفلاسفة الأصلي، ولكنهم ذهبوا في فلسفاتهم مذاهب متباينة بحيث يصعب اعتبارهم مدرسة فكرية واحدة إلا بكثير من التجاوز. والواقع أن القاسم المشترك بينهم كان محاولتهم جميعاً تفسير الظواهر بلغة المادة والقوى الطبيعية (كالماء والنار والهواء.. الخ). (المترجم)



هناك وجود للمدارس حتى عند الشعوب البدائية، وتتمثل مهمة المدرسة دوماً في الحفاظ على تعاليم مؤسسها ونشره. وإذا حاول أحد أعضاء المدرسة أن يغيّر من تعاليم مؤسسها فإنه يتم طرده كمنشق، ومن ثم تنقسم المدرسة، وهكذا تتكاثر المدارس عن طريق الانقسام. ولكن، في بعض الأحيان، بالطبع، يتعيّن على المدرسة أن تجري تعديلات في مذهبها الرسمي وفقاً لظروف خارجية جديدة؛ أي، على سبيل المثال، مع معلومة جديدة أصبحت معروفة على نطاق واسع.

في مثل هذه الحالات، يتم عرض التغيّر الحاصل في مذهب المدرسة الرسمي بطريقة ملتوية، من خلال إعادة تفسير المذهب القديم، بشكل يجعل من الممكن القول لاحقاً إنه لم يحصل أي تغيير في المذهب. ويُنسب المذهب الجديد المتغيّر - الذي لا يُعترف بتغيّره - إلى الأستاذ الذي أسس المدرسة. فالعبارة ((لقد قال أستاذنا ذلك)) نسمعها باستمرار في المدرسة الفيثاغورية (Pythagorean School(T)<sup>29</sup>.

لهذا، يكون من المستحيل أو الصعب جداً إعادة بناء تاريخ أفكار مثل هذه المدرسة. ذلك فإن نسبة الأفكار إلى المؤسس تُمثّل جزءاً أساساً من منهج المدرسة.

إن المدرسة الوحيدة - في علمي - التي حادت عن هذا الاتجاه الجامد هي مدرسة طاليس الأيونية، التي أصبحت مع مرور الزمن المدرسة التقليدية للفلسفة الإغريقية، والتي بعثت من جديد في فلسفة عصر النهضة لتصبح تقليداً للعلم الأوروبي.

---

29. المدرسة الفيثاغورية/الفيثاغورية Pythagoreanism: مدرسة فلسفية يعتقد أن الفيلسوف الإغريقي فيثاغورث أنشأها في جنوب إيطاليا، وفرض على المنتسبين إليها حياة تقشفية صارمة. استمرت الفيثاغورية بعد فيثاغورث، نحواً من ثمانمائة سنة، وكان لها تأثير كبير في تطور الفكر الإنساني. قالت بأن الحقيقة في أعماقها رياضية، وبأن العدد أساس كل شيء، وبأن لكل عدد مضمونه الخاص، فالعدد (1) مثلاً هو الذكاء، والعدد (2) هو الرأي، والعدد (4) هو العدالة، والعدد (5) هو الزواج. وقد اعتقد الفيثاغوريون أيضاً بأن النفس يمكن أن تسمو فتتحد بالذات الإلهية. (المترجم)

لنحاول لحظة أن نتصوّر ماذا تعني القطيعة مع التقليد الدوغمائي<sup>30</sup> dogmatic لمذهب مدرسة "ما"، واستبداله بتقليد المناقشة النقدية، تقليد التعددية التي تحاول من خلالها كل المذاهب المتنافسة الاقتراب أكثر من الحقيقة الواحدة.

إن طاليس هو الذي أنجز هذه الخطوة المميزة، التي يمكن أن يُنظر إليها من خلال حقيقة أن أتباع المدرسة الأيونية، فقط، حالوا علانية أن يطوّروا من تعاليم أستاذهم. وهو ما يتضح بصورة واضحة إذا تصورنا طاليس وهو يقول لأتباعه: ((هذه هي تعاليمي، وهكذا أفهم الأمور، حاولوا أن تطوّروا ما أقول)).

على هذا النحو ابتكر طاليس تقليداً جديداً، أو تقليداً ذا مستويين: الأول، يتم نقل تعاليم الأستاذه من خلال التقليد المتبع في المدرسة، وكذلك التعاليم المختلفة لكل جيل من أتباع المدرسة. الثاني، تم الحفاظ على تقليد يقضي بقيام كل فرد في المدرسة بنقد تعاليم أستاذه ومحاولة تقديم ما هو أفضل.

في هذه المدرسة، إذن، كانت التغييرات والتحويلات في المذهب تعتبر نجاحاً يسجل باسم من ابتدعه. وبهذه الطريقة أصبح بالإمكان لأول مرة سرد تاريخ حقيقي للأفكار.

إن التقليد ثنائي المستوى الذي أصفه هنا هو تراث العلم الحديث، الذي هو أحد أهم عناصر عالمنا الغربي. في حدود علمي، لم يبتكر هذا العلم إلا مرة واحدة، ثم فقد بعد مائتين أو ثلاثمائة سنة، ولكن أعيد اكتشافه في عصر النهضة،

---

30. الدوغمائية dogmatic: كلمة يونانية تعني الجمود العقائدي "مذهباً أو رأياً" أو التأييد الأعمى لمبادئ مذهب أخلاقي ما أو مطالبه، بدون إمعان و النظر فيها، ومن دون تفهم قيمتها الاجتماعية ومن دون دراسة الحالة الملموسة ومن دون مراعاة العواقب الاجتماعية التي قد تنجم عنها، والدوغمائية كظاهرة اجتماعية التي تميز بصورة خاصة الأخلاق المسيطرة في المجتمع الاستغلالي والتي تبذل شتى الجهود للتستر على مغزاها الاجتماعي والتي تقف ضد التقدم الاجتماعي والتمويل الثوري للمجتمع. <http://www.political-sa.net/vb/showthread.php> (المراجع)

بشكل أساسي على يد غاليليو غاليلي<sup>31</sup> Galileo Galilei بعد ذلك بحوالي ألف وخمسمائة سنة أخرى. كان من الممكن، إذن، أن يضيع ويفنى، ولكن كان من الممكن أن يتطور جيداً حيثما وجدت حرية سياسية.

على الرغم من أن العقلانية، كما أوضحناها هنا، مازالت شيئاً نادراً جداً حتى في أوروبا ونادراً ما ينظر إليها كأحد الأديان المميزة في أوروبا، وعلى الرغم من أن أفكار العقلانية الآن تُعامل بازدراء من قبل معظم المفكرين، فإن عقلانية طاليس كفكرة وتقليد، رغم ذلك، ما كان للحضارة الأوروبية أن توجد بدونها على الإطلاق.

لا شيء يميز حضارتنا الأوروبية سوى حماسها للعلم، فهي الحضارة الوحيدة التي أنتجت علماً طبيعياً، وأنها الحضارة الوحيدة التي لعب فيها العلم الطبيعي دوراً حاسماً. ولكن، العلم الطبيعي ما هو إلا النتاج المباشر للعقلانية؛ إنه نتاج المنهج العقلاني في الفلسفة اليونانية القديمة.

## 6

كل ما قمت به حتى الآن، هو الحديث عن نفسي بوصفي عقلانياً وتنويرياً، كما حاولت أن أوضح ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانية والتنوير. وحددت باختصار بأن العقلانية والتنوير يشترطان الحرية السياسية. ولكن سيبدو من المضحك أن أقصر حب الحرية على العقلانية والتنوير وحدهما أو حتى التأكيد على وجود علاقة وثيقة بينهما.

---

31. غاليليو غاليلي 1642-1564: Galileo Galilei: عالم فلك ورياضيات وفيزيائي إيطالي. يعتبر في رأي كثير من الباحثين واضع أسس العلم التجريبي الحديث. ثار على نظريات أرسطو وهو مكتشف قانون القصور الذاتي. صنع تلسكوبات عدة، واكتشف أقمار المشتري، ولا حظ كلف الشمس وطبيعة القمر الجبلية. أيد/جاهر بنظرية العالم الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس القائلة بأن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس، فنقمت عليه الكنيسة وحاكمته. (المترجم)

إن التوق إلى الحرية أمر أولي بدون شك، نجده بدرجات متفاوتة لدى الحيوانات - حتى الحيوانات المنزلية - ولدى الأطفال الصغار.

لكن الحرية تتحول إلى مشكلة في ميدان السياسة. فالاجتماع الإنساني يعني طبيعياً أن الحرية المطلقة لكل فرد مستحيلة. فإذا كنتُ حراً في فعل كل ما أريد، فإن هذا يعني أنني حر أيضاً في أن أسلب الآخرين حريتهم.

لقد حلَّ كانت هذه المسألة بدعوته إلى تقييد الحرية الفردية من قبل الدولة إلى الدرجة التي يتطلبها الاجتماع الإنساني وأن هذا التقييد الضروري يجب أن يشمل كل المواطنين بصورة متساوية ما أمكن ذلك.

ويُظهر هذا المبدأ الكانتي الأصيل أن مشكلة الحرية السياسية قابلة للحل من الناحية المفهومية، ولكنه لا يزودنا بمعيار للحرية السياسية. ففي أغلب الحالات الفردية لا يمكننا أن نحدد ما إذا كان تقييد معين للحرية أمراً ضرورياً بالفعل أم لا، كما لا يمكننا أيضاً تقرير ما إذا كان هذا العبء مفروضاً بطريقة متساوية على كل المواطنين أم لا.

لذلك نحن في حاجة إلى معيار يمكن تطبيقه بسهولة أكثر. وأنا أقترح المعيار التالي: ((تكون الدولة حرة من الناحية السياسية إذا جعلت مؤسساتها السياسية بإمكان مواطنيها تغيير حكومة قائمة دون سفك دماء متى ما كانت الأغلبية راغبة بذلك)). أو بصورة أخرى مختصرة: نحن أحرار إذا كان بإمكاننا التخلص من حكمانا دون إراقة دماء.

هنا، لدينا معياراً يمكننا من التمييز بين الحرية السياسية وقلة في الحرية السياسية، أو، إذا أحببت، بين الديمقراطية والاستبداد.

الأمر لا يتعلق بالطبع "بكلمتي" (ديمقراطية) و(استبداد)، إذ لو أراد شخص ما، على سبيل المثال، أن يعتبر بعض الدول غير الحرة دولاً ديمقراطية، أو أن يعتبر دستور المملكة المتحدة وسويسرا استبدادياً، فإنني لن أدخل معه في جدال فيما

إذا كان قد استخدم هذه المصطلحات بصورة صحيحة أم خاطئة. ولكنني عندئذ سأقول ببساطة: ((إذا كان عليّ أن استخدم مفرداتك فإنني سوف أصف نفسي عدواً للديمقراطية وصديقاً للاستبداد)). بهذه الطريقة يجنب المرء نفسه الضياع في نزاعات لفظية، فما يهم ليس الكلمات إنما القيم الحقيقية.

إن معيار الحرية السياسية الذي قدمته أداة بسيطة، حتى وإن كانت أولية بعض الشيء ولاسيما أنه لا يقول شيئاً عن المسألة المهمة المتعلقة بحماية الأقليات، مثل الأقليات الدينية، اللغوية أو العرقية.

إلى هنا

## 7

لقد حاولت من خلال ما قلته حتى الآن أن أضع إطاراً عاماً لمناقشة المزيد من عناوين الموضوعات المتعلقة بالوضع الراهن للحرية والعالم الغربي الحر. أريد أن أصيغ المسألة الرئيسة هنا على النحو الآتي: ما الذي جلبته الحرية لنا؟ خيراً أم شراً؟ أيهما أرجح؟ كيف يبدو التوازن بين الخير والشر؟

أرى إن هذه الأسئلة ملحة بدرجة عالية، لذلك سأحاول أن تكون إجاباتي محدّدة وموجزة بقدر الإمكان وعلى شكل مجموعة من الفرضيات.

"فرضيتي الأولى": أزعّم أن عالمنا، العالم الغربي الديمقراطي، ليس أفضل العوالم السياسية الممكنة منطقياً أو التي يمكن تصورها، ولكنه مع هذا أفضل العوالم السياسية التي عرفنا بوجودها تاريخياً. من هذه الوجهة فإنني متفائل جداً.

ولكي أوضح وأبرّر أساس هذه الفرضية الأولى المتفائلة، دعوني أقول أنني لا أفكر فقط بمعجزة الازدهار الاقتصادي حينما أمجد عصرنا، رغم أنه ليس بالشيء القليل أن يكون عدد الذين يتضورون جوعاً في مجتمعنا أقل بكثير مما قبل.

إن ما أفكر فيه شيء مختلف تماماً، وإذا كانت الأشياء تعرف بأضدادها. في عام 1942 اعتبر أسقف براد فورد السابق أن عالمنا الغربي شيطاني، ودعا كل قساوسة الأديان المسيحية إلى المساهمة في عملية القضاء على هذا العمل الشيطاني، وأن يساعدوا حكومة ستالين<sup>32</sup> Stalin الشيوعية<sup>33</sup> على تحقيق النصر.

منذ ذلك الوقت، أصبحت شخصية ستالين الشيطانية معروفة حتى من قبل الشيوعيين أنفسهم، ولفترة زمنية قصيرة لكنها مزدهرة أصبحت هذه الشخصية الشيطانية عنصراً أساسياً في الخط العام للحزب، بل في برنامج الحزب. ومع هذا فما زال هناك مؤمنون - وفي بريطانيا من المسيحيين الحقيقيين والورعين - يفكرون بالمنطق نفسه الذي كان يفكر به أسقف براد فورد.

لكي أشرح بصورة واضحة فرضيتي الأولى المتفائلة، لابد لي أن أقول أنني أنطلق حرفياً من وجهة النظر نفسها التي انطلق منها الأسقف السابق بإدانة عالمنا الغربي بأنه من عمل الشيطان، لكن لكي أصفه بأنه أفضل العوالم التي نعرف تاريخها.

لقد كانت المسألة بالنسبة للأسقف مسألة قيم إنسانية خالصة، وهي ما أطلق عليها كانت اسم الكرامة الإنسانية والجاهزية الإنسانية للمساعدة. لقد كان يعتقد أن هذه القيم معرضة للخطر في الغرب بينما هي في وضع آمن في روسيا.

ولكن يبدو لي أن الأسقف، بمثاليته، لم يرَ الحقائق بصورة صحيحة. فلم

---

32. جوزيف ستالين 1879-1953: J. Stalin: الزعيم الثاني للاتحاد السوفيتي، والمؤسس الحقيقي له. حكم الاتحاد السوفيتي حكماً دكتاتورياً، وجعل منها دولة عالمية كبرى، ثم قادها إلى النصر في الحرب العالمية الثانية. تعرّض في عهد خلفه نيكيتا خروشوف لحملة عنيفة كشفت عن عورات حكمه، وأدت إلى تحطيم تماثله وأنصابه التذكارية. (المترجم)

33. الشيوعية Communism: نظرية أيديولوجية سياسية مبنية على أساس المساواة المطلقة والملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والسلع الاستهلاكية. يعتبر كارل ماركس 1818-1883 الأب الروحي للنظرية الشيوعية، كما يعد فلاديمير لينين 1870-1924 من أهم من توغل في النظرية الشيوعية وأسهم في الكتابات والتطبيق فيها. (المترجم)

يحدث أن وجد من قبل مجتمع قلَّ فيه القمع والذل والمهانة مثلما هو حادث في مجتمعنا. كما أنه لم يحدث من قبل أن وُجد في مجتمع كثيرون ممن هم مستعدون للتضحية بأنفسهم لكي يخففوا عن غيرهم الجوع والبؤس.

أعتقد، إذن أنه ليس هناك سبب يجعلنا نحن الغربيين نشعر بالخجل فيما يتعلق بالشرق. ولكن هذا لا يعني أننا في الغرب لا ينبغي أن ننتقد مؤسساتنا، بل على العكس، حتى لو كان عاملنا هو أفضل العوالم التي وجدت حتى الآن، إلا أنه مازال هناك الكثير من الأمور في حالة سيئة فعلاً. إنه من الممكن في أي وقت أن نفقد كل ما حققناه، وهذا هو الخطر العظيم الذي سيبقى قائماً.

أصل الآن إلى فرضيتي "الثانية". فعلى الرغم من أنني اعتبر عاملنا السياسي أفضل العوالم التي نعلم بوجودها تاريخياً، إلا أنه ينبغي أن نحترس من أن نعزو هذه الواقعة إلى الديمقراطية أو الحرية.

فالحرية ليست مَورداً يوصل إلينا خيرات الحياة إلى منازلنا. والديمقراطية لا تضمن إنجاز أي شيء، وبالتأكيد لا تضمن تحقيق معجزة اقتصادية. فمن الخطأ بل من الخطر إلى أبعد الحدود أن يجري تعظيم الحرية بإخبار الناس بأنهم سيكونون على ما يرام بمجرد أن يصبحوا أحراراً.

إن نصيب كل إنسان هو غالباً مسألة قسمة ونصيب، والقليل منه نسبياً يعود إلى الكفاءة والاجتهاد وفضائل أخرى.

إن أقصى ما يمكن قوله عن الديمقراطية أو الحرية هو إنها تمنحنا قدراتنا الشخصية قليلاً من القدرة على التأثير في رفاهيتنا. هذا يوصلني إلى فرضيتي الثالثة."

لا ينبغي أن نختار الحرية السياسية لأننا نأمل بحياة مريحة، ولكن لأن الحرية نفسها تمثل القيمة النهائية التي لا يمكن تحجيمها بقيم مادية. يجب أن نختارها بطريقة ديمقراطية<sup>34</sup> Democritus الذي قال ذات مرة: ((إنني

34. ديمقريطوس 460-370 ق.م: فيلسوف يوناني ولد في شمال اليونان، من أشهر الفلاسفة الذي سبقوا أرسطو، اشتهر بالنظرية الذرية. (المراجع)

أفضل الحياة لفقيرة في ظل الديمقراطية على الغنى في ظل حكم مستبد)). ويقول: ((إن الفقر في الديمقراطية أفضل من كل ثراء في ظل الأرستقراطية<sup>35</sup> أو الأوتوقراطية<sup>36</sup> لأن الحرية أفضل من العبودية)).

في فرضيتي "الرابعة" أود أن أنتقل خطوة إلى الأمام. إن الحرية والديمقراطية وإيماننا بهما يمكن أن يتحول إلى كارثة بالنسبة لنا. فمن الخطأ الاعتقاد أن الإيمان بالحرية يؤدي دوماً إلى الانتصار؛ بل يجب علينا أن نكون مستعدين دوماً للهزيمة. فإذا ما اخترنا الحرية، فيجب أن نكون مستعدين للفناء معها.

لقد حاربت بولندا من أجل الحرية كما لم تفعل دولة أخرى<sup>38</sup>. والأمة التشيكية كانت على استعداد للنضال من أجل حريتها سنة 1938، فلم يكن نقص الشجاعة هو الذي كتب مصيرها.

لقد انتصرت الثورة المجرية<sup>37</sup> عام 1956 التي قام بها شباب لم يكن لديهم ما يفقدونه سوى أغلالهم، لكنها أخفقت في النهاية.

35. الأرستقراطية Aristocracy: هي تسمية لنظام حكم تمارسه حكومة من مجموعة من الناس أو من طبقة اجتماعية تتمتع بالأصول النبيلة والثراء في الأراضي كما في أوروبا الغربية، أو الثراء المالي كما في قرطاج والبندقية، أو التفوق الديني مثل البراهمية في الهند. وهي كلمة إغريقية الأصل وتعني "حكم الأفضل".

36. الأوتوقراطية Autocracy: وهي نظرية سياسية تفيد بأن سلطة الحكم يجب أن تناط بحاكم منفرد، أو مجموعة محدودة. وهي بذلك تتجسد في الديكتاتورية، وكانت قد اتخذت أشكالاً مختلفة منها نظام الحكم الملكي المستبد أو المطلق. والحكومة الاستبدادية لا تعتبر نفسها مسؤولة أمام أي هيئة منتخبة من الناس. وقد سادت في أنحاء مختلفة من العالم على مدى قرون، ولم تزل سائدة في بعض الدول، ولكنها تحسر بالتدرج بفعل انتشار الأفكار الديمقراطية في أوساط الشعوب. (المترجم)

37. في سنة 1944 شهدت العاصمة البولندية وارسو انتفاضة جماعية للشعب (انتفاضة وارسو 1944) كانت عاقبتها تدمير مدينة وارسو تماماً. لقد وصل دمار المدينة خلال الحرب إلى الحد الذي شك معه الناس سنة 1945 في إمكانية إعادة بناء العاصمة البولندية على أنقاض المدينة في المكان نفسه مرة أخرى. (المترجم)



إن الكفاح من أجل الحرية يمكن أن يفشل بطرق أخرى. فقد يسفر هذا الكفاح عن إرهاب، كما حدث في الثورتين الفرنسية<sup>39</sup> والروسية<sup>40</sup>. بل قد تقود إلى عبودية كاملة.

إن الديمقراطية والحرية لا تضمنان الألفية. لا، نحن لا نختار الحرية السياسية لأنها تعدنا بهذا أو ذاك. نحن نختارها لأنها تجعل الشكل الكريم الوحيد للتعايش الإنساني ممكناً، الشكل الوحيد الذي يمكن لنا أن نكون فيه مسؤولين عن أنفسنا مسؤولية كاملة.

أما ما إذا كان من الممكن أن نحقق إمكانات هذا الشكل أم لا، فهذا يتوقف على أشياء عديدة، في مقدمتها أنفسنا نحن.

---

38. في 23 أكتوبر سنة 1956 اندلعت انتفاضة/ثورة شعبية مجرية/هنغارية حاولت وضع حد لسيطرة الاتحاد السوفييتي السياسية والاقتصادية على المجر. بدأت بمظاهرات الطلاب في العاصمة بودابست، وانتهت بمهاجمة القوات السوفييتية لهذه العاصمة وسحقها المقاومة المجرية، وبإقامة حكومة جديدة على رأسها السياسي المجري يانوش كادار. وقد لقي حوالي 32 ألف شخص مقتلهم، وتم إعدام أمير نايجي رئيس وزراء المجر - آنذاك - ورمز هذه الثورة. (المترجم)

39. الثورة الفرنسية The French Revolution : شهدت الأعوام ما بين 1789-1799 نهاية الملكية في فرنسا، وعلى الرغم من أن الثورة الفرنسية بدأت كمحاولة لإيجاد ملكية دستورية، إلا أن المطالب العديدة بإصلاحات بعيدة المدى أدت إلى إعلان أول جمهورية في أواخر سنة 1792، وقد أنهكت أعمال الشغب، والهجمات من الدول الأخرى، والصراعات بين الأحزاب، والانتفاضات المعادية للثورة الجمهورية مما ساعد في تسلّم المتطرفين السلطة، وبدأ الحكم الدموي بالرعب والإرهاب. (المترجم)

40. الثورة الروسية The Russian Revolution: هي الثورة البلشفية أو ثورة أكتوبر. كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية سنة 1917 قادها البلاشفة تحت قيادة فلاديمير لينين وليون تروتسكي الذين كانا متأثرين بأفكار كارل ماركس؛ لإقامة دولة شيوعية وإسقاط القيصرية الذي كان آخر حكامها نقولا الثاني. إلا أن الثورة دخلت في سنة 1918 في أتون الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي الغربي من أجل القضاء عليها. ولكنها استمرت وشرعت في سنة 1922 ببناء الدولة السوفييتية. ولكن الخسائر البشرية كانت فادحة، كما بدأت الثورة تأكل أبنائها. (المترجم).



## الفهرس

---

7	..... تقديم المراجع
17	..... تقديم المترجم
23	..... المراجع
25	..... On Freedom في الحرية